

## اليوم الأخير



وهكذا بدأت مُعاناً ته مِرّةً أخرى مع البرد، تلك أمسية أخرى سوف يقضيها بعيداً عن المنزل، يتسع في الطرقات، محاولاً بشتى الطُّرق البحث عن شارع صغير أو زقاق ضيق نوعاً ما، أو ربما منزل مهجور لو كان سعيد الحظ، كي يَقِيه لساعات هذا البرد القارس. لم يكن يعرف حقاً ماذا يفعل. ويبدو أن عقله قد تحمّد هو الآخر مع أطراقه، فلم يُعد في استطاعته التفكير. كلّ ما كان يحمله من هذه الدنيا هو ذلك الغطاء المهترئ، وتلك المسبحة القديمة التي لا يذكر، حالياً، كيف حصل عليها.

هو لا يشعر بالجوع، وبالتأكيد ليس العطش، ولا يذكر آخر مِرّة شعر فيها بالجوع، يعرف أن تخطّي مرحلة الإحساس منذ فترة ليست بالقصيرة. كما يُدرك تماماً أنّه يتحرك بما تَبَقّى له من طاقة تواصل النفاذ بسرعة فلكيّة، حتى لو وجد طعاماً فهيهات له أن يستطيع أكله مع فكّه العالق من قلّة الحركة، وشفيه الجافتين المتشققين، لاسيما يديه المتجمّدين المرتعشين على الدوام.

ووجد أخيراً صالّته في ذلك الزقاق الضيق المظلم، فتوارى فيه وجلس إلى الحائط. بالكاد استطاع أن يُحيط ساقيه بيديه الصغيرتين. شعر بارتياح كبير لعودته أخيراً إلى مكانه الطبيعي في الأزرقة المظلمة. يَدَاه وكأنّ ثمة ألفة قد تكونت بينه وبين تلك الأرقة، مع مرور كلّ تلك السنوات التي قضها مُتنقلاً فيها. بات يأْلَف كلّ أكياس القمامات وقطع الخردة وجميع القطط الضالّة. يَذَكُر، أزّه شاهد ذلك القط الكبير صاحب الذيل المقطوع في أكثر من زقاق وحارة. يبدو أنّ ذلك المسكين سيئ المزاج وسريع الملل أيضاً، كما أزّه قد صار يعرف جيداً كيفية استخدام قطع الخردة تلك، لصناعة هيكل لسيارة صغيرة يلعب بها بين الفينة والأخرى، كان ذلك منذ وقت طويل على أي حال.

كان التيار الهوائي البارد يصطدم بوجهه بقوة، حتى إنّه أدار رأسه في الاتجاه الآخر للنجاة من تلك الضربات المهلكة، وقع بصره على شبح لمبني سكني كبير، يقف شامخاً كتنّين أسطوري في قصة خُرافية من الأدب الصيني. كان المبني مُلطفماً بالكامل، عَدَّا شقة وحيدة ظلّت تُرسل ضوءها عبر نافذتين متجاورتين، شَكّلتَا عيني ذلك التنّين الخرافين أخذ يفكر في سكان تلك الشقة، بالتأكيد هي أسرة سعيدة دافئة، يضحكون طيلة الوقت ولا يَكْفُون عن تناول الأطعمة الطازجة واللحوم وتناول المشروبات الساخنة. هل لديهم أولاد في مثل سنّه؟ بالتأكيد، سيكونون أسعد الأطفال على وجه الكره الأرضية، فهم ينعمون بفراش وثير دافئ بعد يوم طويل وشاق، قضوه بين الدراسة وألعاب الكمبيوتر، تلك التي كان يشاهدها عبر الزجاج محلات ألعاب الفيديو، ويُذَكِّر أزّه حطي مِرّة بنقود مكّنته من لعب عشر دقائق كاملة. المؤكد أزّها كانت الدقائق الأفضل حياته جنباً إلى جنب، مع تلك التي تناول فيها

بقايا شطيرة ("تشيز برغر"), وجدها بالقرب من أحد المطاعم، هو لم يعرف أنها تملك ذلك الاسم بالطبع.

قلبه بدأ يخنق بشدة هذه المرة. وقد زاد ونه حتي إنّه شعر بتراجع عجيب في عضلات جسده، فتمدد على الأرض الخشنة الباردة، وجد صعوبة كبيرة في التقاط أنفاسه، وربما تكون هذه ليلته الأخيرة وربما لا تكون، لا يشعر بفارق هناك في الأمر، بل ربما يفضل الخيار الأول لما فيه من راحة جسدية، وربما تكون أبداً أو على الأقل هذا ما كان يعتقد. سمع صوت مُؤذن يدعوه إلى الصلاة ياً تي من بعيد، كان الصوت يعلو تارةً وينخفض تارةً أخرى بفعل الرياح العنيفة. هل هي صلاة العشاء؟ أم الفجر؟ كلاً الخيارين مُتاحان، فلم تكن ساعته البيولوجية باستثناء بقية المفقودات، لم يفك في الأمر كثيراً، وقد جعله الصوت الجميل القادر من البعيد، يشعر براحة نفسية رهيبة تتنافى تماماً مع ما يُعانيه من آلام يصعب معها أمر البقاء حيّاً. سوف يؤدي صلاته، وهي بالتأكيد سوف تكون بال蒂مْ مِن إن أسعفته ذاكرته الواهنة بالطريقة الصحيحة للقيمةِ مِنْ مَنْ ليس مجنوناً ليضعه على جلد الياس في مثل هذا البرد القارس.

حاول النهوض ولكنه لم يستطع. أغمض عينيه وأدخل يده في جيبه، وأخرج مسبحته الصغيرة وأخذ يُسبّح بها بشفتين مضطربتين، الآن يذكر من أين أتى بهذه المسبحة، كان يتطلب نقوداً من أحد الشيوخ حين أعطاها إياها وأخبره بأن يذكر الله حينما تضيق به الدنيا، فذكر الله هو المُخْرِج من كل ضيق وهم. كانت هذه آخر ذكرياته عن السنوات المحدودة التي قضتها في هذا العالم. هكذا، مُمسكاً مسبحته بيده الصغيرة ومدرّداً تسبحاً متواصلاً، فارق الحياة حاملاً معه ذكريات مريرة ومعاناً لا يمكن وصفها. كان آخر ما لمحته عيناه الذابتان، ذلك القط الكبير، صديقه من الأزفة والذي مَيَّزه بذيله المقطوع. جلس القط إلى جواره، وراح يلعق يده الممسكة بالمسبيحة، وهو يَمْوء بصوت حزين مقوص، كمن يبكي فراق صديقه. أغمض الصبي عينيه على هذا المشهد الكئيب بابتسامة باهتة، كما حياته، وقد شعر أخيراً بأنّ ثمة مَنْ هو حزينٌ لفراته.

\*كاتب من السودان